المغرب على عتبة الحداثة خلال القرنين 15 و 16

د. عزيز زروقي
باحث في التاريخ والمسرح والسينما والدراما التلفزيونية
المغرب

ملخص:

ما يدعو إلى الخجل هو أننا لا زلنا نصادف وبكثرة فكرة مفادها أن المغرب حافظ طويلا على استقلاله بفضل "انطوائه" وانكفائه وعزلته، وأن التهديد الامبريالي وحده دفعه إلى العصرنة عن طريق حركية بدأت منذ نهاية القرن 19 وتسارعت في القرن 20؛ أي أن المغرب قبل أن يخضع للسلطة الأجنبية التي حولت بنياته عاش من دون أي أضرار بعلاقات محدودة مع العالم الخارجي وبقيامه بالبسيط والقليل من التجارة مع الأوربيين المقيمين في عدد محدود من الموانئ المراسي. وتضيف هذه النظرة أن هذا الاختيار الوقائي مكن البلاد من المحافظة على مؤسساتها وتقاليدها ووتيرة عيشها البطيئة، وأن تخلفها يفسر بإيقاعات عيشها القليلة السرعة مقارنة بمقابلتها الأوربية. وقد كان على أوربا وفرنسا بالتحديد أن توقظ هذا النائم من سباته.

مدخل:

شكل المغرب مسرحا للصراع بين المسيحية الممثلة في الدول الأوربية والإسلام؛ ممثلا في دولة الخلافة العثمانية خلال خلال القرنين 15 و16، حيث مرّ بتطورات شتى شملت مستويات المجال والمجتمع والدولة والعلاقات الخارجية. خلال هذه الفترة انتهت تطلعات المغرب الطموحة نحو الأندلس والمغرب الكبير، وانتقل نحو الدفاع في مواجهة خطرين: أحدهما من الشرق (الأتراك)، والآخر من الشمال والغرب (الإسبان والبرتغاليون). فمنذ مطلع العصر الحديث بسط الأتراك سلطتهم على المغرب الأوسط والأدنى وسعوا الامتداد إلى المغرب الأقصى. وطرد الاسبان المسلمين من الأندلس، وتطلعوا إلى شمال أفريقيا بعد أن سبقهم إليها الغزاة البرتغال.

إن معرفة علاقة المغرب بالعالم الجديد الذي كان في طور التشكل خلال القرنين 15 و16 ومعرفة وضعه داخله، هما اللذان يحددان مدى انخراطه في موجة التحديث والحداثة الأولين. ونلاحظ هنا وجود فترتين مؤسستين للمغرب الحديث؛ الأولى: تزامنت مع نهاية العصر الوسيط وبداية الأزمنة الحديثة أوربيا، ومن خلالها تشكلت أيضا جذور المغرب الحديث والمعاصر. ونعتبر في هذا السياق المرينيين **آباء** لما سيعرف بـــ **المغرب**، إذ رسمت في عهدهم حدود التراب، وملامح المجتمع. والثانية: وافقت الأزمنة الحديثة، لما احتك المغرب لأول مرة مع ذلك الذي أصبح فعلا حصار الامبريالية الأوربية.

خلف هذا الحصار الذي فرض على المغرب عزلة نسبية عن العالمين الإسلامي والغربي، فبالرغم من وضعه السياسي والعسكري فإنه لم يكن أسوأ حالا من باقي أقطار المغرب الأخرى، إلا أنه انفرد بوضع خاص، فهو لم يتطلع إلى قوة خارجية لإنقاذه أو مساعدة كما فعلت الأقطار الأخرى ،بل اعتمد قواه الخاصة برد فعل لحركة دينية وطنية، دفعت إلى سدة الحكم بأسرة عربية من الأشراف (السعديين) قادت المغرب للتصدي للصراع على المجال الذي أفرز صحوة سياسية ،وأحقية في النفوذ في المقام الأول، وللأطماع الخارجية في حوض البحر الأبيض المتوسط في المقام الثاني. هذه السياسة أفرزت نظرة معيبة بمسبقاتها، ورسم صورة لمغرب عتيق، بعيد باستمرار عن مسار التاريخ، وشاهد بانغلاقه وانطوائه على تحولات الزمن. ومجمل هذا التصور غير صحيح، لأنه أنتج معاني مغلوطة، تقعيدا على قراءة للوقائع وتأويل للأخبار بمسبقات ترمز إلى الفشل.

المقال الذي بين أيدينا، والمعنون ب؛ "**المغرب على عتبة الحداثة خلال خلال القرنين 15 و16** " هو التفاتة متواضعة لما استطعت أن أتطرق إليه من خلال مجموعة من المصادر و المراجع وواجهة لطبيعة القراءة التي أتوسل بها البحث في المسارات التي سلكتها المغرب في هذا الزمن المفصلي، وفي نوعية الفرضيات والافتراضات التي أوظفها كإطار منظم للكتابة والاستنتاج، أتوجه بالمقال بهندسته الحكائية الساحرة والمحكمة في نفس الآن إلى الباحث المثقف والشغوف بالتاريخ وخصوصا تاريخ المغرب غير الراهن. ولهذا السبب جاء المقال مخففا من الإحالات الكثيرة والدقيقة المشروطة في الأعمال الأكاديمية، ومتبوعا ببليوغرافيا منتقاة. ولكي لا أسقط في الابتذال وأنا أكتب مقالا للمتتبع الواسع وغير المتخصص، ولا في التقصير وأنا أذهب إلى ما هو أساسي مباشرة وبإيجاز، بل خلاف ذلك ضمن إشكاليات وفرضيات يستعصي فهمها على غير المتخصص الدقيق والمستبطن لحيثيات تاريخ المغرب إجمالا وفي هذا التاريخ بالضبط.

قد يكون من الطبيعي والمقبول، أن نستأثر إلى غاية اليوم بأكبر عدد من الدراسات التي أنجزها المؤرخون الفرنسيون والمغاربة، وخصوصا الفترة المتوترة السابقة على إقرار الحماية الفرنسية والاسبانية، أي القرن 19 المغربي المطبوع بتنافس القوى الأوربية على البلاد. وقد يكون من البديهي أن تدرس بالأخص مرحلة الحماية والمطالبة بالاستقلال. وقد يفهم ذلك اعتبارا لطبيعة هذه المواضيع ولوفرة المواد الضرورية لكتابة تواريخها بالمقارنة مع القرون السابقة. غير أن هذه الوجاهة الموضوعاتية لم تنصف الإسهام السعدي في زمن مفصلي من تاريخ المغرب، و لم تثمن دور السعديين في قيمته الحقيقية، وأبرزه المحافظة على استقلال البلاد والحيلولة دون الخضوع للإمبراطورية العثمانية كما هو حال باقي المغارب.

بل وأدهى من ذلك نظر إلى الدولة السعدية وتاريخها باستصغار غير عادل. ألم يحن بعد رد الاعتبار للعصر الحديث المغربي ولدولة السعديين، بعد مسلسل الإهمال والطمس والتشويه والتخطيء الذي طالهما ؟ ومن حيث الطمس، هل يمكن أن نقول أن هناك محاولة

مقصودة لحجب تاريخ السعديين ومحوه من الذاكرة؟ ومن ذلك أن الأسرة السعدية لم تتمكن من المحافظة على وحدة المغرب السياسية، إذ سرعان ما عاد العباد والبلاد إلى **التجزئة**، ولهذا السبب حوسبت بقسوة، مع استثناء فترة حكم احمد المنصور.

فمن حيث المقاربة والمنهج، لم ينجز تاريخا مقارنا على المستوى الجغرافي، و لم ينجز تاريخا مقارنا على المستوى الموضوعاتي، بحيث لم يضع جردا مفصلا لحالة المجتمع والاقتصاد، والمعلومات عنها على كل غير كافية. والملاحظ في نفس الاتجاه ومن وجهة نظري بالأساس، وجود فراغات في تاريخ المغرب عموما والسعديين على وجه الخصوص، لغياب دراسات تركيبية قادرة على إضاءة بعض الزوايا المظلمة من هذا التاريخ. والقصد من هذا المقال المتواضع إثارة ما هو مغفل في الكتابة التاريخية المغربية، وأعني هذه الفترة بالذات. ومن المعاني الغائبة والمفتقدة تفسير نجاحات وإخفاقات الأسرة السعدية.

المبحث الأول: أحوال المغرب السياسية خلال القرنين 15 و 16

كان المغرب بعيدا عن حالة العزلة والانطواء، بل وكان في مقدمة المشهد الذي تميز بتحولات مثيرة لعالم يتسع باضطراد نتيجة للكشوف الجغرافية. فرض على المغرب، الجار القريب من أوربا، التأثر بتوسعاتها منذ البداية. ذلك أن أقدام مسيحيي شبه الجزيرة الأيبيرية توطدت في القرنين 15 و16 على امتداد السواحل المغربية المتوسطية والأطلسية، في نفس الوقت الذي أحاطوا فيه بإفريقيا ليصلوا إلى الهند ويعبروا المحيط ليكتشفوا عالما جديدا. وبالتالي، كيف يمكن تصور أن المغرب لم يكن معنيا بالظرفية العالمية الطارئة، و لم ينتبه إلى الوضع الاقتصادي الجديد المترتب على استحداث وتطور طرق عالمية مغايرة للإنتاج والتسويق؟ وكيف سيواجه التهديد العسكري والسياسي المستجد؟

واجه المغرب وضعية جديدة ابتداء من القرن 15م، تمثلت في الاحتكاك المباشرة والدائم وفي عقر الدار مع الوجود الأجنبي، وبلوغ الدولة الوطاسية أوج ضعف السلطة المركزية، وتلاشي المشروعية الرمزية مستوى لم يعد يؤهلها لحكم البلاد وتوفير الأمن للعباد، سيما مع تداعيات الكوارث الطبيعية السريعة الوتيرة. كما لوحظ بالمقابل ظهور قوى وزعامات محلية شبه مستقلة، نمت لها بنيات محلية وإقليمية في علاقة بالوجود الأيبيري في السواحل وبالتجارة البعيدة المدى[1]، في وقت عجز فيه الوطاسيون عن هزم البرتغال، وتذبذبت سياستهم في الجهاد الذي لم يؤثر مطلقا في النشاط التجاري الخارجي للمغرب[2].

كانت انطلاقة السعديين من سوس 1510 م حيث بايع أهلها **محمد القائم بأمر الله** أميرا عليهم لمواجهة البرتغاليين الذين استقروا بحصن أكادير، فكانت له انتصارات أولية رائعة هناك، حيث شاركه ابنه **أبي العباس الأعرج** بنصيب وافر في قيادة الحملات ضد النصارى قبل وبعد تنصيبه ملكا[3]. ليتمكن أخوه **محمد الشيخ** من تحرير حصن "فونتي" أكادير، من قبضة البرتغال بشكل نهائي.

وجد الأتراك أنفسهم أمام سلطة جديدة تحمل نفس الطموحات السياسية والدينية، ثم إن هؤلاء الأشراف الذين انطلقوا من جنوب المغرب كانوا يحملون معهم المشروعية التي أصبح يفتقدها منافسوهم "بني وطاس" و"بني زيان" وحتى "الحفصيين" في تونس بسبب تحالفهم مع المسيحيين [4].

بدأ الدعم العثماني للوطاسيين في عهد السلطان العثماني **سليمان القانوني** سنة 1535 م، وقد شمل ذلك الدعم؛ الأسلحة والمدافع والذخائر الحربية التي ضمت آليات لحصار المواقع الإسبانية والبرتغالية. وقد أراد من وراء ذلك منعهما من تحقيق خططهما لاحتلال

---

[1]–Bernard Rosenberger ; **Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité** ; Fondation des Trois Cultures ; Maroc ; Première édition ; 2008 ; P. 59-26 .

[2]–Ibid ; 89 -61.

[3]– إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، المجلد الثاني، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، الطبعة الاولى، 1978م)، 275 .

4– عبد الرحمان المؤذن (عبد الرحيم بن حادة)،"العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربات جديدة"، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، العدد 109، الرباط، (2003م)، 71.

المغرب... كما أنهم سوف يحصلون بالنتيجة على التأييد الشعبي، ويؤلبوا علماء الدين ذوي النفوذ الكبير في المغرب للدعاية لهم وبما يخدم تسهيل هيمنتهم على المغرب، وقبول المغاربة للسيادة العثمانية[5].

وفي الوقت الذي كانت الامدادات العسكرية العثمانية تصل إلى جيش **أبي حسون**، كان الصراع الوطاسي –السعدي، الذي بدأ سنة 1533م، قد بلغ ذروته سنة 1549م. فقد دارت الدائرة على الوطاسيين، وتمكن **محمد الشيخ السعدي** ما بين (1539–1557م) من إنهاء حكم **أبي حسون الوطاسي**، حيث فرّ من فاس إلى مليلية، ثم إلى الجزائر الخاضعة للسيادة العثمانية، وبدأت الوحدة الوطنية السياسية في المغرب بدخول السلطان **محمد الشيخ السعدي** فاس في العام نفسه[6].

ففي منتصف القرن 16م، أصبح المغرب وجها لوجه مع العثمانيين في الشرق، والاسبان والبرتغال في الشمال. آنذاك فكر **محمد الشيخ** التعايش السلمي مع العثمانيين في البداية، على أمل قيام تعاون بين الجانبين لمواجهة الخطر البرتغالي والاسباني المشترك. وتكشف تقارير الحاكم الاسباني في مدينة وهران الجزائرية Comte d'lezudete إلى حكومته، عن المراسلات بين السلطان المغربي، ووالي الجزائر، يقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لتحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الاسباني. كما بعث بهدايا إلى "طرغود" باشا أمير البحرية العثمانية في البحر المتوسط، واقترح عليه الدخول في حرب ضد اسبانيا[7].

وفي سنة 1550م اتخذ العثمانيون من مدينة تلمسان ذات الموقع الاستراتيجي القريب من الحدود المغربية، قاعدة للوثوب نحو المغرب، وهيأوا العمل للانقضاض عليه، فقاموا بالاتصال برجال الطرق الصوفية لمعرفتهم بتأثيرهم في الشعب، والاتفاق معهم على إلحاق المغرب بالدولة العثمانية. وقد علم السلطان المغربي بمساعي العثمانيين، فأسرع بالبطش بالطرق الصوفية لتوحيد الموقف الشعبي المغربي وراءه، وتجنيد كل قوى المغرب من أجل الدفاع عنه[8]. لذا بدأ التوتر يتصاعد بين الجانبين حتى وصل إلى الاصطدام، الذي حصل سنة 1551م بين القوات السعدية والعثمانية ناحية تلمسان، والذي كان كفيلا بدفع العثمانيين والسعديين إعادة النظر في علاقتهم ببعض[9]. وعى العثمانيون مخاطر الطموح المغربي على الأقل في ارتكازه على أرضية تاريخية ودينية وحضارية، وأن مساعيه لابد أن تلقى صدى لدى المسلمين.

جاءت تطورات الأحداث اللاحقة بعد رسالة السلطان العثماني إلى السلطان المغربي لتؤكد حقيقة النوايا التوسعية للعثمانيين ومحاولات ضم المغرب. فقد استعد العثمانيون بقواتهم البحرية (22 سفينة حربية) والبرية بقيادة **صالح رايس** لمساندة **أبي حسون الوطاسي** أول ديسمبر 1553م. الذي استطاع السيطرة على باديس وتقدم نحو الداخل مع القبائل المنضوية تحت لوائه، فانهزم **محمد الشيخ**، وانفتح المجال أمام القوات العثمانية داخل المغرب (تازة) حتى وصلوا أطراف فاس[10]. ليدخلها **أبو حسون** في 8 يناير 1554م. فقرأت الخطبة باسم السلطان العثماني، كما سُكّت عملة عثمانية فيها[11].

5– محمد الغربي، **بدايات الحكم المغربي للسودان الغربي**، (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1982م)، 89–90.

6– محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2011م)، 29.

7–عبد الكريم، كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، (الدار البيضاء: شركة الطبع والنشر، 1978م)، 75–76.

8– محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**، 31.

9– عبد الرحمان تالمؤذن، **العثمانيون والعالم المتوسطي**، 71.

10– أبو القاسم أحمد الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفلالي، (المغرب: المعرفة للنشر والتوزيع، 1967م)، 91.

11– عبد الكريم، كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، 81.

استطاع السعديون أن يبلوروا ويحققوا مشروعهم الطموح والخاص، المتمثل في التحول بإرادة واعية إلى دولة قوية بمقاسات الوقت[12]. وبذلك برهنوا بالفعل في هذا التاريخ الحاسم على قدرتهم الاستجابة لتحديات اللحظة، ومنها إثبات الذات أمام قوة البلدان الأوربية والإمبراطورية العثمانية. والتاريخ شاهد على أن المغرب دخل طوعا كما كرها في الحداثة.

فما الذي تغير في المغرب، في العالم المتحول باضطراد مند نهاية القرن 15؟ وبأي حالة ولجت البلاد زمن القرن 16؟

المبحث الثاني: سياسة السعديين الخارجية لإفشال المخططات والأطماع التركية

إشارات عديدة تدال على رغبة السعديين في إرساء دولة جديدة؛ التحول الطارئ في عهدهم على طبيعة السلطنة والسلطان، مما جعل دولتهم تختلف عن "الأنموذج الدولتي" السابق. ذلك أنهم كسروا حلقة "الدورة الخلدونية"، لما وضعوا نهاية للدولة العصبية المعتمدة على قوة البداوة المحاربة، وأرسوا دولة فوق قبلية ومستقلة عن العصبية، أي دولة الشرف، وطبعوا بهذا الخاصية المتميزة المغرب الحديث[13].

وقد كان لهذا التحول تداعيات، منها نزوع السعديين إلى رفض الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية (ص9) ، ومنها التحول الطارئ على شخص السلطان وعاصمته ومحلته وحركته. إذ لم يعد السلطان يمارس الحكم المتنقل ويحرك خارج عاصمته للقاء رعاياه. بل أصبح الرعايا هم من يتسابقون إلى مراكش ليهللوا للسلطان خلال مناسبات الاحتفالات الاستعراضية المغلقة، وذلك حتى يتملوا بطلعة السلطان ويعظموا وجه الشريف. وهكذا تغير معنى المحلة والحركة السلطانيتين، بحيث نصادف ملوكا لم يمارسوا الحركة[14]، التي بدورها لم تعد ضرورية للغاية لضبط البلاد، وحكم العباد.

يباغتنا القرن 16 بأمراء سعديين جوالين، زاروا مصر والجزائر واسطنبول ومدريد والبرتغال، مضطرين أو بقصد أداء فريضة الحج، أو الاستعانة في مسعى الاستيلاء على العرش، فاحتكوا بأهلها واستوعبوا أنظمتها واكتسبوا تجاربها، قبل أن يرقوا إلى سدة الحكم، ويصيروا من جملة السلاطين. حولهم السفر المتعب الطويل والتشرد المضني والتواصل مع المسيحي كما مع المسلم إلى شخصيات استثنائية، منتبهة ومدركة وواعية أن التاريخ يحدث ويتشكل وينجز ويجري في أماكن أخرى غير المغرب. ولم يكن بالتالي من المستغرب أن ينظر أهل المغرب بعين التحفظ والريبة إلى بعض ممارسات هؤلاء الأمراء السلاطين الموسومة بالتجديد والتحديث، أي بالخروج عن العادة والمعتاد[15].

أ-بنية المجتمع السعدي:

ما يشهد على انخراط السعديين في حركية التاريخ التي حملت أوربا إلى أولى موجات الحداثة، هو ذلك المزيج الجديد المكون لمحيط الحكم في النصف الثاني من القرن 16، والذي يعد بامتياز عامل انفتاح المغرب على العالم، لاحتضان أطرافه مشروع الحداثة السعدي وحملها مضامينه التحديثية. ذلك أن هذا المحيط لم يعد حكرا على النواة الصلبة المكونة من لف "جزولة" الذي اتكأ عليه السعديون بداية قيامهم للأمر، ولا مقتصرا على مشايخ الصلاح في سوس ودرعة، وإنما تعزز بإضافة عناصر أخرى لا تقل تأثيرا.

[12]-Bernard Rosenberger ; Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité ; P. 234 .

[13]-Bernard Rosenberger ; Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité ; P. 223 .

[14]- ملاحظة هامة: ما يثير الانتباه أن السلطان أحمد المنصور، وخلال حكمه الطويل، لم يخرج خارج مراكش إلا مرتين، وذلك قبل أن يفر منها خوف الوباء الذي أودى بحياته سنة 1603م.

[15]-Bernard Rosenberger ; Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité ; P. 223 .

ومن هذه العناصر "العلوج"، أي المسيحيون من أصول اسبانية وبرتغالية الذين ارتدوا بعد وقوعهم في الأسر عن دينهم واعتنقوا الإسلام. وقد أهلتهم كفاءتهم العسكرية ليلتحقوا بدائرة السلطان، ويتولوا وظائف القيادة في الجيش السعدي، ويشكلوا العمود الفقري للجيش الأندلسي[16].

كانت المراكز المغربية المحتلة من طرف البرتغال والإسبان قد ولدت علاقات غير حربية بالضرورة بين المغرب وأوربا. إذ بالإضافة إلى العلاقات التجارية بين الطرفين تأثر المغرب ثقافيا وتقنيا بأوربا، "نتيجة للاستفادة من خبرات الأسرى خلال تنقلاتهم وصفقات فديتهم وإقامتهم التي قليلا ما كانت مزرية"[17]. ومن العناصر الطارئة أيضا على المعرب اليهود والإسلاميون[18] من أصول إيبيرية في الغالب، وقد حظوا بثقة السعديين لتمرسهم بالمعاملات المالية وعقد الصفقات التجارية الدولية. واستطاع السعديون بواسطتهم ربط علاقات اقتصادية ودبلوماسية مع الدول الأوربية[19].

في حين بات الأندلسيون الوافدون من مملكة بني الأحمر النصرية"، والتي تعدّ من الناحية الحضارية جزءا لا يتجزأ من أوربا. فقد حمل هؤلاء إلى المغرب، في هجراتهم المتتابعة قبل وبعيد سقوط غرناطة سنة 1492م، "مهاراتهم في المعارف والصنائع والتقنيات والحرب"[20].

ومنها كذلك المشرفون على مزارع قصب السكر ومعاصره في سوس وشيشاوة وجماعات من التجار والمغامرين الهولنديين والانجليز وخلافهم ممن كانوا بمثابة وكلاء للرأسمالية الجنينية. وقد حمل كل هؤلاء الأوربيين، أسرى وأندلسيين ويهود، الطارئين على العصبية والقبيلة والمشدودين دوما إلى أصولهم الإيبيرية المسيحية إلى المغرب تكنولوجيا متطورة لم تنتجها البلاد وتستعمل بطريقة غير مسبوقة وتولد عقلية مغايرة للسائد. "وكما شجع هذا المزيج المميز بملامحه المطبوعة بتبني ثقافة كونية السعديين على الانفتاح على العالم، حملت معارفه ومهاراته المستوردة المغرب إلى الحداثة الأولى"[21].

ب- سياسة محمد الشيخ:

شعر الاسبانيون والبرتغاليون بالخوف من سيطرة العثمانيين **وأبي حسون** على العاصمة المغربية فاس، إلى جانب المناطق الساحلية القريبة من مراكز احتلالهم. وقد جاء ذلك من خلال الوثائق الإسبانية نفسها. ففي رسالة الملك البرتغالي (جان الثالث) Jean III إلى الإمبراطور الاسباني (شارلكان) Charles Quint ما يدل على القلق والخوف. حيث حثه على التدخل ليحول دون توطيد العثمانيين لنفوذهم في المغرب.[22] لكن فاس تمت استعادتها من قبل السعديين، مما جعل **محمد الشيخ** يظهر كخصم عنيد للعثمانيين وفي نفس الوقت كند للإسبان والبرتغاليين، فعمل على إسكات أحد الطرفين، حيث مال إلى تهدئة الأحوال مع البرتغال والاسبان سنة 1554م[23].

منذ أن استعادة **محمد الشيخ** لمدينة أكادير، حاولت البرتغال تجنب الدخول في صراعات مع السلطان المغربي، حيث لم يحاولوا انتهاز الفرصة لتسديد ضربة قاضية على المراكز السعدية بالمغرب، وهذا دليل على أنهم كانوا يخشون المقاومة الشعبية حتى في غيبة السعديين[24].

---

[16] -Ibid ; P. 225 .

[17]- Ibid ; P. 223 -224.

[18]- اليهود الحديثي العهد بالإسلام.

[19]-Bernard Rosenberger ; **Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité** ; P. 225 .

[20]- Ibid ; P. 224 .

[21]- Ibid ; P. 225 .

22- أبو فارس عبد العزيز محمد الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، تحقيق: عبد الله كنون، ج 1، (تطوان: المطبعة المهدية، 1964م)، 109.

[23]- أحمد العماري، "خلفيات الحدود الجيوسياسية للأتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية**، العدد 4، فاس، (1986م)، 169.

[24]- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، 284.

لما تم **لمحمد الشيخ** أمر الاستلاء على فاس، والقضاء على الدولة الوطاسية، بعث إليه السلطان **سليمان القانوني** بسفارة وخطاب، يدعوه الدعاء له في المنابر، فاستقبل **محمد المهدي** هذا الوفد، وما كاد يعلم فحوى هذا الخطاب حتى بادر إلى السفير العثماني قائلا: "قل لسلطان الحواتة: لا أجيبه حتى أكون بمصر إن شاء الله[25]. فأمر السلطان العثماني باغتياله.

إن اغتيال السلطان **محمد الشيخ** يؤكد طموح العثمانيين الجاد لإخضاع المغرب، وإلا بماذا نفسر تلك التحشيدات البرية والبحرية لمهاجمة المغرب، في حين كانت مدينة وهران الجزائرية وتونس (الحفصية)، تعانيان وطأة الاحتلال الإسباني والقوى المحلية المتعاونة معها، فيما حلت الفوضى والاضطرابات في المغرب، وأصبحت أبوابه مفتوحة أمامهم حيث بدأ والي الجزائر **حسن خير الدين** يستعد ويتطلع للقفز على البلاد واحتلالها[26].

ت–سياسة عبد الله الغالب:

بعد وفاة السلطان **محمد الشيخ**، تولى الحكم في المغرب ولده السلطان **عبد الله الغالب** (1557–1574م) الذي خاض مع العثمانيين معركة "وادي اللبن" سنة 1558م، حيث تمكنت القوات المغربية من تحقيق انتصار حاسم، فيما فرّ والي الجزائر **حسن خير الله** إلى "بادس" وقام بتحصينها أكثر، خوفا من هجوم مغربي أو إسباني – برتغالي. وقد استغل الإسبان هزيمة العثمانيين فشنوا من وهران هجوما على مدينة "مستغانم" في أغسطس عام 1558م، إلا أنهم فشلوا في احتلالها[27]، حيث ظل السلطان **عبد الله الغالب** ملازما لحلفه مع الاسبان الذين جابهوا الأتراك، وهاجموا المراكز التركية بأساطيلهم ومشاتهم.

كما رفع الحصار عن مدينة الجديدة التي احتلها البرتغاليون سنة 1562م، ووسع العلاقات التجارية مع بريطانيا، وأطلق يد الإسبان في جزيرة "بادس" التي احتلها العثمانيون[28]، ورأى أن خير وسيلة لعرقلة الملاحة العثمانية بين "بادس" وطنجة، هي التنازل عنها، ومنع الأسطول العثماني من إنزال قوات برية في سواحل المغرب، فيما سعى ولده **محمد المتوكل** إلى إغاثة المدينة قبل استيلاء الاسبان عليها، لكن الاسبان سبقوه في الدخول واحتلال المدينة وجزيرتها[29].

هكذا صمد السلطان **عبد الله الغالب** في وجه الأتراك بشدة، ورفض مطلقا أن يعترف بالسيادة الرمزية للعثمانيين، و لم ينفك عن موالاة الاسبان بالمغرب الأوسط، كما كانت له بعض المحاولات السرية في مد المساعدة للموريسكيين. وقد توجهت فئة منهم إلى تطوان التي كانت بها جالية أندلسية قدمت في عهد الوطاسيين، ومارست الجهاد البحري منذ مطلع القرن 10هـ/16م، وكانت تطوان توجه في نفس الوقت حملاتها ضد البرتغال المجاورين لها بسبتة وطنجة وأصيلا. كما استقر عدد من الموريسكيين بكل من الرباط وسلا، حيث قاموا بنشاط كبير في التعرض للبواخر الأجنبية والاستيلاء عليها[30].

ث– سياسة محمد المتوكل وعبد الملك، أو ما نسميها؛ فترة تقارب عثماني– مغربي:

التجأ بعض أولاد السلطان **محمد الشيخ (المعتصم بالله عبد الملك وأبو العباس أحمد)** إلى الجزائر واستانبول هربا من بطش أخيهم **عبد الله الغالب** الذي قتل ثلاثة من إخوتهم لرفضهم تقديم البيعة له. وقد اتصل الأمير **عبد الملك** بالحكومة العثمانية في استانبول، ثم اجتمع بالسلطان العثماني **سليم الثاني**(1566–1574م)، وادعى العثمانيون الوصاية على الحكم لدعمه، ومن هنا بدأ التدخل العثماني في شؤون

---

[25]– نفسه، 281

[26]– محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**، 39.

[27]– نفسه، 40.

[28]– أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى**، ج 5، (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1995م)، 49 .

[29]– خوان بوتيستا، "نصوص اسبانية حول المغرب في القرن 16"، تعريب: آمنة اللوه، **مجلة البحث العلمي**، العدد 34، الرباط، (1984م)، 122–124.

[30]– إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، 323.

المغرب من خلال رعاية أولاد السلطان **محمد الشيخ**، وتقديم كل المساعدة الممكنة[31]. فأصدر السلطان العثماني **سليم الثاني** مرسوما ظهيرا- 10سبتمبر 1567م، وجهه إلى **عبد الله الغالب** أشار فيه إلى أحقية أخيه الأمير **عبد الملك** في الحكم[32]. ظل السلطان المغربي **عبد الله الغالب** غير مكترث بخطابات السلطان العثماني، وفي الوقت نفسه، لم يسع الأخير لضم المغرب عسكريا على الرغم من إلحاح **عبد الملك** وأخيه. وكان سكوت العثمانيين بسبب هزيمتهم في معركة "ليبانتو" البحرية عام 1571م أمام التحالف الأوربي الذي تزعمته الكنيسة، حيث وضعت تلك المعركة حدا للخطر المباشر على المغرب[33].

بعد سنتين من هزيمة "ليبانتو"، سعى العثمانيون إلى التقارب مع المغرب، حيث أرسل السلطان **سليم الثاني** سنة 1573م إلى السلطان في فاس يشيد فيها بجهود المغرب في معاضدة المسلمين في ثورتهم في غرناطة، على الرغم من التقارب المغربي الاسباني[34].

جاءت تولية **محمد المتوكل** (1574-1576م) بعد وفاة أبيه، مناسبة ليعيد العثمانيون ثانية تدخلهم في شؤون المغرب من خلال أعمامه وإخوته، خاصة مع تولية **مراد الثالث العثماني** الذي أمر والي الجزائر بإمداد **عبد الملك** وأخيه **أحمد** بالذخائر والمؤن للتوجه نحو فاس سنة 1576م، خاصة بعد أن تعهده بدفع مبلغ قدره 500 ألف دينار ذهبي، والالتزام بالتخلي عن ميناء العرائش المغربي للعثمانيين بالجزائر، لاتخاذه قاعدة لانطلاق عملياتهم البحرية في المحيط الأطلسي. وكان ذلك تكتيكا مرحليا اقتضته الظروف لاستلام الحكم[35]. وبالفعل تمكن الأميران من دخول فاس بمساعدة العثمانيين، ونصب **عبد الملك** سلطانا على المغرب، وبدأ يتظاهر بالدعوة للسلطان العثماني على المنابر، لكنه سرعان ما صرف القوات العثمانية، ودفع التعويضات المالية للدولة العثمانية، ورجعت القوات العثمانية إلى الجزائر[36].

كانت الادارة العثمانية تدرك وهي تخطط لمشاريعها ضد المسيحية في غرب المتوسط أن تلك المشاريع لا يمكن تحقيقها إلا في إطار تحالف إسلامي في منطقة المغرب، لذلك كان السلطان العثماني حريص على إحلال الأمن والوئام بين الحكام في المنطقة لمواجهة أعداء الدين. وبما أن دول المغرب كانت توجد على خط المواجهة مع المسيحية، فإن الدولة العثمانية كانت حريصة على ألا يحدث أي خلاف أو نزاع بين الحكام، قد يصرفهم عن الهدف الأسمى للدولة؛ وهو الجهاد، وهو الأمر الذي كانت تشدد عليه المراسلات الموجهة من السلاطين إلى الحكام في هذه المناطق[37].

أدى لجوء **محمد المتوكل** إلى البرتغال والاسبان لمساعدته على استرداد عرشه، قيام كلا الدولتين بنصرته، وتعبئة قوى أوربية متعددة الجنسيات وراء ملك البرتغال (سباستيان) Sebastião. وقد جاء ذلك الدعم في محاولة لتعزيز مواقعها في البلاد، والحصول على مكاسب أكبر من خلال السلطان المخلوع **محمد المتوكل**، والقضاء على التحالف العسكري المغربي – العثماني وإبعاد العثمانيين عن المغرب للانفراد بالسيطرة عليه[38].

اتخذ (سيباستيان) Sebastião من حضور الأتراك في غرب البحر المتوسط ذريعة للتدخل في المغرب ، وقدّمهم على أنهم غزاة جاؤوا لاحتلاله، واعتبر أن استقرارهم فيه سيشكل تهديدا لأمن مملكته والممالك المسيحية الأخرى، وأنهم بتسليحهم للقراصنة في موانئ

31- محمد العربي الخطابي، "نضال المغرب في الحقل الدولي في سبيل استرجاع أراضيه"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 2-3، 1975، ص166.

32- محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**، 41.

33- نفسه، 44.

34- محمد الغربي، **بدايات الحكم المغربي للسودان العربي**، 93.

35- محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**، 44.

36- يلماز اوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عدنان محمود سلمان، المجلد الثاني، (استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، 1990م)، 385.

37- مراسلات السلطان إلى عبد الملك وباشوات الجزائر خلال 1577."دفاتر مهمة"، دفتر رقم: 21، (رسائل رقم: 637،639)، دفتر رقم 30 (رسائل رقم: 429،466،475)، دفتر رقم: 35، (رسالة رقم :475).

38-عبد الهادي التازي، **التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، ج 8، (المحمدية: مطابع فضالة، 1987م)، 46.

المغرب مثلما اعتادوا القيام بذلك في باقي موانئ المنطقة سيلحق أضرارا كبيرة بسواحل البرتغال واسبانيا، ويعرقل نشاط البحرية المسيحية نحو شرق المتوسط، وذلك بغية الحصول على دعم القوى المسيحية ومساعدة (فيليب الثاني) Philippe II أثناء حملته على المغرب[39].

في مطلع غشت سنة 1578م هاجم ملك البرتغال المغرب من الشمال برا وبحرا بقواته البرتغالية، وقواته الأوروبية المتحالفة، فيما قاد السلطان المغربي **المعتصم بالله عبد الملك** القوات المغربية والقوات العثمانية المتحالفة معه[40]، في الوقت الذي تتحدث الوثائق الاسبانية عن حجم أكبر لهذه المساعدات، وتذكر أن باشا الجزائر تلقى الأمر من الديوان العثماني بتعيين ما بين 4000 إلى 5000 من الأتراك لتوجيههم إلى المغرب[41]. كانت الإدارة العثمانية تتكتم عن هذه المساعدات لربما أن السلطان العثماني كان يتخوف من فشل مشروع السلم الذي كان يريد توقيعه مع اسبانيا خاصة، وأنه كان يعول عليه في الحرب التي كان يستعد لخوضها ضد إيران وفي أوروبا، وحتى لا يعطي الفرصة ل (فيليب الثاني) Philippe II دعم (سيباستيان) Sebastião في حربه ضد المغرب[42].

التقى الجانبان في 4 غشت 1578م في معركة "وادي المخازن" والتي سميت معركة "الملوك الثلاث"، وحقق خلالها المغاربة انتصارا ساحقا توفي على إثره مباشرة السلطان **عبد الملك** فيما قتل كل من **محمد المتوكل** وملك البرتغال. وتم الانتصار بقيادة **أبي العباس أحمد** الذي لقب "بالمنصور"[43]. وفي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي قرب سواحل المغرب، طارد الأسطول العثماني بقيادة **سنان باشا**، الأسطول البرتغالي –الاسباني وتمكن من إغراق الكثير من السفن المعادية، وإبادة الآلاف من القوات الغازية، و لم يفقد العثمانيون ولا سفينة واحدة[44].

الجدير بالذكر، أن هذه الفترة كانت تعرف ثمة تقارب عثماني– مغربي من خلال اتباع الزاوية الدلائية، التي كان لها نفوذا واسعا في البلاد لاسيما في ميدان التبادل التجاري والتعاون في الجهاد البحري ضد القراصنة الأوربيين فقد كان ميناء سلا مفتوحا في وجه السفن العثمانية التي كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فكانت تتزود بالمؤونة والذخيرة فيما كان الميناء المغربي يستقبل غنائم الأسطول العثماني ويوفر له أيضا الحماية من العواصف البحرية أو غارات الأعداء لمطاردتهم، كما كانت الموانئ الجزائرية تستقبل السفن المغربية العائدة إلى الأمير عبد الله الدلائي فضلا عن مراكب المجاهدين السلاويين والتطوانيين[45].

ج– سياسة أحمد المنصور الذهبي:

بعد وفاة **عبد الملك** آل الحكم لأخيه **أحمد المنصور** الذي راسل بعض الدول ينقل لهم خبر انتصاره في معركة "وادي المخازن" أو القصر الكبير، كما تسميها المصادر الدفينة لتاريخ المغرب[46]. ،وسرعان ما جاءته الوفود المهنئة من مختلف أقطار الوطن العربي، والعالم الإسلامي، وحتى الأوروبي، وجاء الوفد العثماني في تموز – يوليو – 1579م، وكان يضم عددا من علية القوم بصحبة الشيخ **أبي الطيب العسكري الجزائري**. حمل الوفد هدايا ثمينة من الملابس الفاخرة، وسيف محلي فاخر الصنعة موشى بالحلي و الزينة. إلا أن **المنصور** تأخر في الرد على السلطان العثماني، مما أوجد حالة من النفور بين الجانبين والتنصل عن كل وعد مسبق قطعه للعثمانيين في أثناء وجوده في

---

[39]–عبد الرحمان المؤذن (عبد الرحيم بن حادة)، **العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربات جديدة**، 74.

[40]– أبو فارس عبد العزيز محمد، الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، 34.

[41] de l'histoire du Maroc, PAUL – Robert Ricard et Chantal de La Véronne, Les sources inédites GEUTHNER 12, RUE VAVIN, Tomme 2, PARIS ,1956 ,P. 403.

[42]– Ibid, p. 450.

[43]– أبو عبد الله بن عبد الله الصغير اليفرني، **نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي**، صحح عباراته التاريخية: (هوداس)، (باريس: مطبعة بردين، 1888م)، 47.

[44]– يلماز اوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، 388.

[45]– محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، (الرباط: المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م)، 216.

[46]– سعيد عدي، **المغرب والعالم المتوسطي (دراسات في تاريخ العلاقات الدولية المغربية ما بين القرنين 16م و 20م)**، (الرباط: دار الأمان، 2014م)، 47.

الجزائر. كانت خلفية ذلك النفور تعود إلى مناوءة القوات العثمانية لتولية **أبي العباس أحمد** للسلطة في المغرب، وأرادوها للأمير **إسماعيل بن السلطان عبد الملك**، والذي كان آنذاك موجودا في الجزائر[47].

عمل **المنصور** على تقوية علاقاته مع الدول الإسلامية والمسيحية على السواء، ولكن الرئيس **علي علوج** الذي كان يمثل "الباب العالي" بالجزائر، حاول أن يقنع السلطان **مراد** بغزو المغرب إثر حادث دبلوماسي عرف **المنصور** كيف ينقذ نفسه من عواقبه المحتملة. وتفصيل ذلك، أن **أحمد المنصور** لم يبد احتفاء لائقا بالوفد العثماني الذي جاء لتهنئته بالمناسبة المذكورة، بحجة أن هدايا السلطان العثماني دون مقام الملك المغربي، واستغل الرئيس **علوج** الفرصة لإعداد حملة عسكرية ضد المغرب، فوجه المنصور وفدا إلى الباب العالي، محملا بهدايا نفيسة سنة 1581م، ومنذئذ والعلاقات مستقرة بين الطرفين، سائر حياة **المنصور**.

كان للمنصور مراسلات مع أمراء مصر والحجاز، و لم ينس أن يكافأ أكابر فقهاء مصر الذين سجلوا في حقه شهادات تنويه قيمة. أما اسبانيا، فكان وفدها في مقدمة الوفود التي هنأت **المنصور** بالانتصار، وقدمت له هدايا عظيمة سنة 1579م، كانت تقودها العربات، كما كانت هدية الوفد الاسباني صندوق من الدّر و اليواقيت وقضبان من الزمرد[48]. أما البرتغال فقد سلموا إلى **المنصور** تلقائيا مدينة أصيلا، التي أخلوها سنة 1589م، وتم تسليمها رسميا سنة 1592م بعد أن خشي (فيليب الثاني) Philippe II أن ينجد **المنصور** أحد المطالبين بعرش البرتغال التي كانت قد ألحقت بإسبانيا، ومع ذلك فكرت إسبانيا مرارا في الاستيلاء على العرائش التي كانت حينئذ أعظم موانئ المغرب[49].

هكذا أصبح للمغرب في عهد السلطان **أحمد المنصور** وزن دولي كبير من خلال قوته العسكرية و الاقتصادية وتطوره الحضاري في مختلف المجالات. إذ سعى إلى إنشاء قوة عسكرية بحرية فرضت هيبتها في غربي البحر المتوسط، وبدأ يتطلع بعد تحرير موانئ المغرب من الاحتلال الايبيري. وذاع صيت **المنصور** في الأقطار العربية التي معظمها أو بعضها خاضع للسيطرة العثمانية، وباتت بعض الدول الأوربية تحسب له ألف حساب في العالم المتوسطي.

المبحث الثالث: أهمية العلاقات التجارية المغربية في العالم المتوسطي

كانت للعلاقات السياسية الواسعة التي ربطها المغرب مع العالم المتوسطي، خاصة أوروبا، الأثر الكبير في نمو تجارته الخارجية، حيث وفد العديد من التجار الأوربيين على الموانئ المغربية. شجعهم على ذلك الامتيازات التي كانت تعطى لهم، وكذا رغبة السلاطين المغاربة في تطوير الموانئ والأسطول البحري المغربي، لما لهذا الأخير من دور فعال في ازدهار ونمو التجارة الدولية، إضافة الى حماية الشواطئ والدفاع عن البلاد، وأهم الموانئ التي عرفت نشاطا مكثفا في تلك الفترة؛ موانئ: آسفي، أكادير، العرائش وتطوان[50].

أ-العلاقات التجارية المتوسطية لمحمد الشيخ مع أوروبا:

كان للمغرب على عهد **محمد الشيخ** علاقات تجارية مع بعض الدول الأوروبية؛ كفرنسا، حيث قدم سنة 1543م مبعوث عن (فرنسوا الأول) François Ier ويدعى (جون باكلون) John Boucle بغية مفاوضته حول إمكانية تقديمه كميات من القصدير إلى فرنسا، مقابل بعض المواد اللازمة لصناعة المدافع[51].

---

[47]- عبد الهادي التازي، **التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، 47-49.

[48]- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**

، 344.

[49]- نفسه، 275.

[50] -عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج 3، (بيروت: نشر المركز الثقافي، ط 2، 2004م)، 54.

[51] - إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، مرجع سابق، 346.

أما بالنسبة لانجلترا، فقد قدمت باخرة بريطانية سنة1551م، بقيادة (طوماس ويندهام) Thomas Wyndham ، أفرغت مجموعة من الأسلحة والبضائع بميناء آسفي، من أجل توجيهها إلى مراكش، ثم تابعت هذه السفينة طريقها نحو ميناء أكادير حيث حملت شحنات من السكر والتمر واللوز. بعد ذلك، اتسع نطاق هذه المبادلات، وبدأت السفن الانجليزية تجلب إلى المغرب الأسلحة والأقمشة الفاخرة مقابل بعض المنتجات المغربية الخاصة. هذا التعاون المغربي- البريطاني، في الميدان الاقتصادي، وكذا تصدير الأسلحة المذكورة للمغرب، زاد من توتر العلاقات بين انجلترا والبرتغال، والذي استمر لمدة طويلة[52].

ب-العلاقات التجارية لعبد الله الغالب مع أوربا:

قام السلطان **عبد الله الغالب** في عام 1559م، بالتفاوض مع فرنسا بواسطة سفيرها، (أنطوان دوبرون)، Antoine Dubron في شأن مدينة القصر الصغير، حيث أبدى استعداده للتنازل عنها مقابل الحصول على أسلحة فرنسية، وسمح للبواخر الفرنسية بالرسو في الموانئ المغربية، في مقابل السماح للسفن المغربية بالرسو في موانئ فرنسا. كما بعث (شارل التاسع) Charles IX سنة1561م، التاجر (روبير بوردو) Robert Bordelais مبعوثا عنه الى السلطان الغالب، من أجل مفاوضته بشأن احتكار فرنسا لتصدير النحاس والسكر من المغرب. إلا أن الحروب الدينية التي كانت أوروبا، بما فيها فرنسا، مسرحا لها، أوقفت هذه المفاوضات[53].

أما بالنسبة للتجار الانجليز فلقد ظلوا يزودون المغرب بمختلف المنتوجات البريطانية[54]، و لم يلبث التعامل التجاري بين البلدين أن دخل في طور رسمي، حيث كتب **عبد الله الغالب** إلى الملكة (إيزابيلا) Isabelle طالبا منها السماح لسفنه، والتي كان يقودها في الغالب أوروبيون، بحمل البضائع المغربية الى انجلترا لترويجها هناك، كما طلب منها أن تزود ربابنته بصك تأمين حتى لا تعترض السفن الانجليزية طريقهم. فوافقت على طلبه، إلا أنها اضطرت تحت الضغط البرتغالي إلى منع تصدير الاسلحة الى المغرب[55].

ت-العلاقات التجارية لمحمد المتوكل مع أوربا:

استمرت العلاقات مع انجلترا قائمة، مع خلفه **محمد المتوكل**، حيث كانت تبعث له بالسلاح (سرا، كي تتجنب غضب البرتغال)، مقابل ملح البارود، وتم عقد اتفاق بشأن التعامل التجاري والبحري بين الطرفين، وكذا السماح لإنجلترا بتوجيه مبعوث دائم الى المغرب[56].

ث-العلاقات التجارية لعبد الملك مع أوربا:

وهو ما تم فعلا سنة 1577م، في عهد **عبد الملك المعتصم**، حيث بعثت الملكة (اليزابيت) Isabelle، أول سفير لها وهو (ادموند هوجان) Edmund Hogan، الذي تمكن من الحصول على ضمانات جديدة لرعايا انجلترا، خاصة التجار[57]. كما قام التاجر الانجليزي (جون ويليامز) John Williams ببيع المغرب كمية كبيرة من قنابل المدافع مقابل كمية من نترات البوتاسيوم. وقد أخبر السفير (ادموند هوجان) Edmund Hogan الملكة رغبة **عبد الملك** التعاون مع انجلترا، وأنه لا يميل للملك الاسباني (فيليب الثاني) Philippe II لأنه يراه واقعا تحت تأثير البابا ومحاكم التفتيش[58].

في نفس السنة، عُين (غيوم بيرارد) Guillaume Bérard بصفة رسمية، قنصلا عاما لفرنسا، لدى **عبد الملك المعتصم**، وظل (غيوم بيرارد) Guillaume Bérard في نفس الوقت طبيبا رسميا للسلطان المغربي إلى حين وفاة هذا الأخير. وقد لعب هذا القنصل

---

[52]- نفسه، 349.

[53]- نفسه، 347.

[54]- نفسه، 289.

[55]- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، 350-351.

[56]- نفسه، 351.

[57]- نفسه، 351.

[58]- محمود علي عامر (محمد خير فارس)، **تاريخ المغرب العربي الحديث**، 54.

دورا هاما في العلاقات المغربية الفرنسية، وكانت مهمته الأساسية، هي حماية السفن التجارية الفرنسية من حركة الجهاد البحري، حيث نجح بتدخل من السلطان **عبد الملك** في حمل القراصنة الموريسكيين على إرجاع العديد من البواخر الفرنسية إلى أصحابها. كما فاوض المغرب سنة 1579م، بعد معركة "وادي المخازن"، حول منح سلف لفرنسا، وكذلك تزويدها ب 4000 طن من النحاس والفولاذ، و2500 طن من ملح البارود[59].

ج-العلاقات التجارية للمنصور مع أوربا:

أعطى انتصار معركة "وادي المخازن" للمغرب، و**لأحمد المنصور** هيبة وسمعة دوليتين، استند إليها هذا الأخير في سياسته الخارجية، حيث حفل عهده بنشاط دبلوماسي واسع كان الغرض منه تأمين سلامة المغرب دون توريطه في أي مغامرة خارجية، في وقت كانت أوروبا تعيش فترة صراع دولي بين اسبانيا من جهة وانجلترا وفرنسا والبلدان المنخفضة من جهة أخرى. هذه الحروب شلت نشاط اسبانيا في افريقيا، ودفعتها، وغيرها من الدول الأوروبية، إلى التماس المساعدة المغربية.

كما وطد **المنصور** علاقاته بالملكة (اليزابيت) Isabelle البريطانية، حتى أنهما اتفقا قبيل وفاته على غزو اسبانيا وتقاسمها. وكانت بريطانيا قد غزت قادس سنة 1595م، إلى جانب هولاندا، وكان **المنصور** عرض عليها إمدادها بثلاث بواخر حربية، لكنها امتنعت بلباقة.

وكان التجار الإنجليز يتوافدون بكثرة على المغرب خلال هذه الفترة، و لم تكن الحكومة البريطانية تتبنى مباشرة التجارة مع المغرب، بل كانت توفد عنها شخصيات انجليزية كوكلاء من أجل استيراد السكر والجلود وغيرها من البضائع المغربية، مقابل الأقمشة التي أغرقت الأسواق المغرب. كما كانت **للمنصور** مراسلات كثيرة مع البلاط الانجليزي تدل على ما كان بين الطرفين من ود واحترام[60].

بالنسبة لفرنسا، فقد توارد بعض قناصلها خلال هذه الفترة، إلا أنها مع ذلك لم تتمكن من ربط علاقات متينة مع المغرب، والتي اقتصرت غالبا على مسألة تبادل الأسرى أو استخدام بعض الرعايا الفرنسيين كأطباء أو فنيين.

أما فيما يخص البرتغال، فتميزت في عهد (جون الثالث) Juhana III (1521-1557م) بإدارة ظهرها للمغرب وشؤونه، وانصرفت لاستغلال البرازيل. إلا أنه بعد تسلم الدوق (سيباستيان) Sebastian العرش 1557م -1578م، حدث تحول في السياسة البرتغالية حيث أولى المغرب اهتماما كبيرا، كونه كان متعصبا للكاثوليكية في صراعها ضد البروتستنتية والإسلام[61].

المبحث الرابع: زراعة قصب السكر

لطالما دافعت عن العامل الاقتصادي كتابات تاريخية سابقة، وإنما عالجته بشكل مختلف. فالمتتبع لتقييم حجم وقيمة واردات المغرب من الذهب قبل، وبعد حملة **أحمد المنصور** إلى السودان الغربي سنة 1591م، سيستنتج استنتاجا مفاده تراجعها بشكل ملموس. فالسعديون ومذ كانوا مجرد زعامة محلية، اختاروا نشاطا اقتصاديا بديلا ومتميزا؛ ألا وهو دورة إنتاج قصب السكر.

كيف ستصبح هذه الزراعة مفتاح الانخراط في العالم الجديد؟

استثمر السعديون في دورة إنتاج السكر التي احتكروها تقنيات متقدمة وأساليب تدبيرية تعد الأكثر تطورا في وقتها، سواء تعلق الأمر بتهيئة المزارع وتطوير نظام السقي وتجنيد اليد العاملة أو بتسخير العجلة والعربة وتشييد معاصر معالجة القصب وتحويله أو باختيار مدينة

---

[59]- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، 347-348.

[60]- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، مرجع سابق، 350-351.

[61]- Charle andré julien, **Le Maroc Face aux imperialismes**,1416-1956, Editions J.A , Paris , 1978, P 270.

تارودانت مركزا للإشراف على الإنتاج والتحكم فيه. ولكن الأهم أنهم عرفوا، بإرادة سياسية مراهنة على تطوير إنتاج السكر، كيفية الاستفادة من الانفتاح على التحولات الطارئة على الواجهة الأطلسية والاندماج في الاقتصاد العالمي.

مثل السكر ابتكارا وإبداعا سعديا صرفا، أتاح للدولة التأقلم مع أولى موجات العولمة، بل والانخراط فيها. واستطاع السعديون بناء دولة بفضل عائدات دورة اقتصاد السكر، وليس اعتمادا على التجارة "القفلية الصحراوية" فقط. هذا مع التنبه إلى أن العولمة المقصودة تزامنت مع اتساع المجال الأطلسي نتيجة الإبحار الذي باشره الأيبيريون، ومهدت عالميا للانتقال إلى الماركنتيلية بدءا من مطلع القرن 16، ومنها إلى ظهور الدول الشمولية. ومن ثمة أدرك السعديون ووعوا بعمق، حسب أطروحة (برنارد روزنبيرجي) Bernard Rosenberger التركيبية والبديلة، تحديات تزحزح مركز استقطاب التاريخ من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، بل وانضبطوا لهذا المتغير حين بحثوا لهم عن مكان داخله.

نمى السعديون صادراتهم المتنوعة التي كان أهمها السكر لمقايضتها بالمتوجات الأوربية وأولها السلاح الناري، وحاولوا بالمقابل الحفاظ على الذهب. وهذه السياسة الاقتصادية تشبه إلى حد بعيد المركانتيلية التي تميزت بها الاقتصاديات الموجهة في عدد من الدول الأوروبية. وحتى يكتمل الانخراط في النظام التجاري والمالي الدولي الجديد، لم تسمح الدولة السعدية بالمبادلات التجارية مع الأوربيين في موانئ معدودة فقط، بل فتحت البلاد في وجه المسافرين والتجار المسيحيين، الذين استقر بعضهم وعقد صفقات في مراكش وفاس وتارودانت. وهو وضع مختلف عما كان عليه الحال قبل هذا التاريخ وحتى بعده وإلى غاية منتصف القرن 19. كذلك أصبح المغرب في عهد السعديين حقا معاصرا للتاريخ كما كان يتشكل، أصبح أحد الفاعلين في أولى موجات العولمة، وإن ظل في موقع التابع ومرتبة الخاضع حيال اقتصاد دولي تهيمن عليه لشبونة وAnvers ثم أمستردام[62].

المبحث الخامس: امتلاك المغرب السعدي للسلاح الناري ورهانه على التوازنات الإقليمية

أ- التسلح السعدي الحديث:

فهم السعديون خلافا للوطاسيين، أن قوة الأوروبيين تتجلى في توفرهم على جيوش نظامية محترفة تيسر توسعاتهم وتحمي تجارتهم الدولية. لذلك وجهوا اهتمامهم أيضا إلى ورش بناء جيش مثيل بري وبحري، مما ساعدهم إلى حد كبير في إنجاح سياستهم الدولية. كما أدرك السعديون كذلك أن مواجهة التهديد الأيبيري والعثماني يتطلب التوفر على قوة عسكرية ضاربة، ووعوا ضرورة إيجاد الموارد الكفيلة بتحقيق هذا المطلب. وهكذا اهتموا أكثر بالأنشطة الإنتاجية الجديدة وبالتجارة مع أوروبا وكان المخزن يتحكم فيهما. ووجهت مداخل هذه الأنشطة الاقتصادية لتغذية خزينة الدولة، التي كانت تنفق جزءا هاما منها في التسلح الحديث لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية. وكان السعديون قد تفوقوا في استعمال السلاح الناري مذ كانوا مجرد قوة محلية في الجنوب. إذ بفضل امتلاكه وحسن استعماله نجحوا في تحرير Santa Cruz de Aguer سنة 1541م.

حصل السعديون على سلاح القرن، باردا ومدافع وبنادق، عبر قنوات مختلفة. ومنها الاستيراد من الخارج، عبر القنوات الرسمية كما هو الحال مع الأتراك، أو عن طريق التهريب وبمقايضة السكر. ومنها التصنيع المحلي بتجنيد الصناع المغاربة المهرة في صهر معدن النحاس المحلي وحرفة الحدادة. مع الإشارة في هذه الحالة الثانية إلى استعانة محتملة بالتقنيين الأوربيين والأسرى المسيحيين والأندلسيين واليهود.

ترتب على امتلاك المغرب السعدي للسلاح الناري نتائج أثرت بشكل عميق في المجتمع والذهنيات. فمن جهة أولى، وفر انتشار هذا السلاح حماية أنجع من الحيوانات المفترسة، ولكنه رفع أيضا من مستوى التقتيل في الحروب الداخلية والنزاعات المحلية، بل وأصبح امتلاكه ورفض الضريبة مرادفين للحرية عند عدد من القبائل، إذ عادت لمشاعر الاستقلال الوسائل الكفيلة بإثبات الذات. ومن جهة ثانية، غير

[62]- Bernard Rosenberger ; **Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité** ; P-233 .224-223 -165- .

السلاح الناري جغرافية المقدس في الدهنيات، إذ أقفل بإحكام صدمة العالمين الإسلامي والمسيحي وغير النظر إلى المقابلات الموروثة والمحكومة بمنطق ثنائي: **الجهاد مقابل الحروب الصليبية، ودار الإسلام مقابل دار الكفر**. ذلك أن حروب السعديين ضد خصومهم في الداخل وأبرزهم الوطاسيين ورفضهم الخضوع للخلافة العثمانية وتحالفاتهم مع دول أوربية، يفترض أن هذه التقنية الحربية لا تحتمل التمييز بين المسلم والكافر وبين الدارين الواجب الدفاع عنها والواجب حربها[63].

ب- التوازنات الإقليمية:

رسم المغرب في العهد السعدي شخصيته الخاصة والخالصة، لما رفض وواجه في نفس الآن التوسع الأيبيري والتهديد العثماني، وحين نوع علاقاته الدبلوماسية وقعدها على المنفعة والمصلحة وليس على الانتماء الديني والعرقي. رفضت الدولة السعدية لطبيعتها الشريفة الخضوع للإمبراطورية العثمانية. وفي هذا التمسك باستقلال البلاد والحفاظ عليه تكمن أصالة وفرادة المغرب بين كل بلدان المغارب.

تميزت الدولة السعدية ومنذ تاريخ مبكر نهج سياسة خارجية واقعية وذلك بإتقان لعبة "تنويع التحالفات" وتغييرها وفق مستجدات ميزان القوى الإقليمي، وخصوصا مع القوى البارزة آنذاك؛ الأتراك والأسبان والانجليز. وقد نجح السعديون فعلا في تدبير شروط استقلال البلاد بتوظيف قضايا؛ الأسرى والاحتلال الاسباني للبرتغال والتنافس الاسباني الانجليزي والمخاوف من التوسع العثماني.

اهتم السعديون بالجهاد في بعده السياسي وليس الديني فقط. وهكذا وظفوا هذه الفريضة بامتياز لكسب المشروعية إبان قيامهم للحكم، ثم للدفاع عن البلاد في معركة "وادي المخازن". لكنهم لم يدعوا الناس إليها باستمرار، لخطورة إثارتها للمشاعر وقابلية توظيفها لتحقيق مكاسب ضد الدولة الشرعية نفسها. وهذا ما يفسر سلسلة الهدنات التي عقدوها مع محتلي المراكز الساحلية وغض نظرهم عن المعاملات التجارية مع محتليها كما مع غيرهم من الأوربيين.

فكانت النتيجة، أن المغرب تمكن من أن يكون لنفسه دولة متماسكة بين أوربا الأزمنة الحديثة بقوتها التقنية وتوسعاتها الجغرافية، وبين الإمبراطورية العثمانية بتمثلها للخلافة وامتدادها الجغرافي[64].

المبحث السادس: العوامل الظرفية والبنيوية

أ- عوامل ظرفية:

ما يمز السنوات الأخيرة من عهد **أحمد المنصور السعدي** هو العودة العنيفة والقوية وغير المسبوقة للجوائح الكبرى المدمرة والمخربة، إذ تتابعت من دون انقطاع الأوبئة والطواعين والمجاعات بين سنتي 1596م و1613م. وهددت هذه الآفات التي ضربت البلاد وتكالبت عليها أعمدة بناء الدولة الذي شيدها السعديون لبنة لبنة منذ عهد السلطان **أحمد الأعرج**، بحيث ذهب ضحيتها السلطان **أحمد المنصور** ذاته سنة 1603م، وأفنت خيرة مكونات الجيش النظامي، وتسببت في كوارث ديموغرافية كبرى.

لقد حدث تغيير كبير في توزيع ساكنة البلاد بخلخلة المكونات الحضرية لأهم المدن؛ إذ فرّ خارج الحواضر من له القدرة خوفا من الأوبئة والعنف والجوع، بينما استقبلت نفس المدن البؤساء الباحثين عن الأمل في النجاة. وبذلك ظهرت فراغات سكانية في السهول الأطلسية، التي انتقل إليها عرب "معقل" الرعاة بقوة ترحالهم، مسجلين بذلك عودة للقبلية في ثوبها القديم والتي من سماتها "ترييف" قسط من المجتمع المغربي وإلى غاية الحماية. صاحب هذه الفترة فرار وهلاك المزارعين الذين جندوا قسرا للعمل بالسخرة في مزارع ومعاصر قصب السكر، والذين سبق واحتجوا بدعم من بعض رجال الدين على مصادرة أراضيهم أو حرمانها من مياه السقي خدمة لدورة هذا

---

[63]- Bernard Rosenberger ; Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité ;P. 113-114- 224 - 229-231 .

[64]- Ibid ;P. 229 -224 -18 -9

الانتهاج. ويمكن في هذه اللحظة قياس نسبة هشاشة اقتصاد مفروض من قبل مخزن محتكر لأنشطته الكبرى. لقد ترتب على الاستغلال المكثف لدورة إنتاج السكر تقدما تقنيا ومنافع اقتصادية لا ينكران، لكنه كان بالمقابل مؤلما لمكونات معينة من المجتمع ومدمرا للوسط الطبيعي والنظام البيئي[65].

تراجعت دينامية المجتمع المغربي التي تسببت فيها الأزمة الديمغرافية بعد سنة 1600م، و لم يعد الاقتصاد المدمر بفعل الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية يقدم شيئا ذا قيمة للتجار الأوربيين، الذين لم تعد أيضا بضاعتهم تجد سوقا مغربية رائجة. وزاد من حدة هذا التراجع "انبثاق التجارة الثلاثية التي همشت الساحل المغربي. حيث لم ينصف التطور الجديد لمحاور التجارة العالمية الكبرى موقع المغرب الذي تحول البحر فيه إلى مجال للقرصنة لا للتجارة والتواصل. كذلك انتقلت البلاد من اقتصاد موجه طبع فترة التحولات إلى اقتصاد منحرف وتائه"[66].

لم تسلم البلاد في ظل هذه الوضعية الحرجة من اندلاع تمردات محلية؛ في "سوس التي بدأت شرارتها الأولى قبيل وباء سنة 1597م، ثم سرعان ما انفجرت بشكل أوسع وأخطر بعد وفاة **أحمد المنصور**، والوباء. غير أن أخطر النزاعات التي تحولت إلى حروب دامية هي التي ترتبت عن أزمة إرث خلافة **أحمد المنصور**. وكان النظام السياسي السعدي في نظر الكاتب خاليا من قاعدة قارة لانتقال الحكم، مما جرّ على البلاد مشاكل عدة استعصى حلها إلى غاية منتصف القرن 20"[67].

إن العنف الذي طبع حروب إرث الحكم بين أبناء **أحمد المنصور** لم يبلغ أقصى مستويات الدموية، طالما أن الحروب اندلعت بالأساس بين فيالق المرتزقة. ذلك أن القتال جمع بين قدماء المحاربين من زمن **أحمد المنصور**، واتخذ شكل تصفية حسابات داخلية. وكيفما كان الحال، فقد كانت الأطراف المتحاربة تغير معسكراتها خلال المعارك حسب ما يمليه قانون من له القدرة على العطاء أكثر. وعندما افتقد الطامعون موارد تمويل الرماة الأندلسيين و"الطبجية العلوج" و"المشاة الشرسين"، التجئوا إلى خيالة عرب "معقل"، فانحازت شراكة إلى **محمد الشيخ المامون** و"الشبانات" إلى **مولاي زيدان**. وهكذا هددت الحروب النسيج الاجتماعي المستحدث بفتحها جروح المجتمع القديمة وبإحيائها النعرة القبلية. ولكن من دون الانكفاء إلى خانة المغرب "الخلدوني". لأن السعديين أسسوا لأول دولة تعتمد على الشرف كمصدر أولي للكاريزما، ووضعوا نهاية لدولة العصبية المعتمدة على القوة المتحاربة، وطبعوا بذلك المغرب الحديث بهذه الخاصية الدائمة. ولأن العصبية اتخذت وجها مغايرا لما تزعمها مرابطون "أكورام" من مريدي مشايخ الصوفية.

بات جيش المرتزقة يميل لكل من له القدرة على أن يضمن لهم الراتب الضخم، والمنح المجزية، والغنائم المعتبرة، فما هو إلا شاهد على زبونية مجتمعية معممة، تفسر تغيير الولاء خلال النزاعات والحروب وخلافهما. وكان لابد للبلاد من انتظار جيش **مولاي إسماعيل البخاري**، حتى يردع ويقهر ويروض ساكنة مشهورة بأنها لا تفهم إلا لغة العنف والإكراه[68].

اعترضت عقبة التمويل في كثير من الأحيان نجاح الجيش في مهمته، مما يفسر استمرار تلك العلاقة الحتمية بين تطوير الجباية وإصلاح الجيش. فالسعديون انتقلوا من جيش المتطوعين الممول بمداخيل الزكاة والأعشار ثم الخراج، إلى جيش قار ممول بضريبة "النايبة"، التي اعتبروها حلا ذكيا لمعضلة معادلة الجباية والجيش. وقد رفعت الدولة السعدية من حجم الضرائب لتتبنى جيشا قويا احترافيا، تحكم به التراب وتجبي بفضله الضرائب، وتحقق به عظمة صورة لامعة. كان هذا الجيش مكونا من: أندلسيين وعلوج وسود ومرتزقة. وكانت فيالق المرتزقة بالذات مكلفة بحراسة السلطان والتصدي للقبائل الرافضة أداء الضرائب أو المهددة للحكم، وبالمقابل كانت تكلف الدولة رواتب مجزية وغنائم وافرة. إلا هذا لا ينفي قطعا بوجود فئة غريبة عن المجتمع تحمي الحكم من المجتمع. ونزوع الدولة إلى التدخل في

---

[65]– Bernard Rosenberger ; Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité ;P. 230 –233 .

[66]– Ibid ;P 231 –232 .

[67]– Ibid ;P 231 –232 .

[68]– Ibid ;P 229 –231 .

الاقتصاد للرفع من إنتاجية المواد المطلوبة في الأسواق الدولية، ومن ثمة خلق ظروف توسيع الوعاء الضرائبي، بملاحظة أن تدابير الدولة تمخضت عن متغيرات اجتماعية عنيفة في بعض الأحيان ومؤلمة[69].

لا ننكر أن مصاريف الجيش قد ترهق ميزانية الدولة حتى في مراحل قوتها لعجز المنظومة الضرائبية عن تحقيق الانتظام الجبائي، وتوسيع الوعاء الضرائبي بالرفع من قيمة المستحقات المفروضة على الرعية وتنويعها، وذلك بالرغم من تقليد التجربة الأوربية في هذا الباب، والتي وجهت هي الأخرى باحتجاجات اجتماعية. "كان فرض الضرائب غير الشرعية يتطلب إقناع العلماء بضرورتها وإجبار الرعية على أدائها. لكن المحاولات انتهت في كثير من الأحيان إلى استعمال العنف، مما دفع جزءا هاما من المجتمع إلى اعتبار الضريبة إكراها بل واستعبادا، ودفع الحكام إلى النظر إليها كعلامة على الخضوع والانقياد والرضوخ والإذعان"[70].

ب- عوامل بنيوية:

كشفت المحن المترتبة عن التزامن النادر للكوارث الطبيعية والحروب الأهلية عن ضعف الدولة البنيوي، والذي لولاه لما كان هدم وتحلل البناء المحقق بإصرار عميقا إلى هذا القدر[71]. اتسع في هذا الفترة العصيبة الفارق بين أوربا بما فيها شبه الجزيرة الأيبيرية وبلاد المغرب الأقصى، الذي عادت مغربا Maroc بالمعنى المعاصر. وتعمقت الهوة نتيجة لغياب وسطاء؛ مثل: الأندلسيين، الذين يمكنهم رص الجسور بين الضفتين. هذا في حين لم يقم المورسكيون بنفس الدور والوظيفة، لأنهم، وخلافا لأسلافهم الأندلسيين، لم يستطيعوا الاندماج في المجتمع المغربي مطلع القرن 17، مما دفع بعضهم إلى العودة لبلده الأصلي وإلى الردة الدينية.

كان التغيير الذي تم في القرن 16 تغييرا من الأعلى، قام به السلطان ومحيطه فقط من دون مشاركة واسعة للعوام ورجال الدين المهيمنين على العقليات والذهنيات. لذلك لم يكن من المستغرب أن تنظر هاتان الفئتان، المهمشتان في المشروع الحداثي الكبير، إلى السلاطين المجددين نظرة مشوبة بالاستغراب والشك والريبة.

وصل السعديون إلى السلطة وحافظوا عليها اعتمادا على الغلبة والإكراه والتخويف، مبررين ذلك بواجب استيفاء فريضة حماية الدين. وترتب على هذا الوضع، الذي يعد من نقط الضعف البنيوية في البناء المشيد، أن أطاعتهم رعية بمثابة القطيع وفاقدة لأدنى مستويات الذكاء ومستبطنة للعصيان، مما يفسر حضور هاجس الجيش عند السلاطين وباستمرار[72].

لم ينساق السعديون ومحيطهم خلال القرن 16 لنظرة عموم المغاربة المنقادين من طرف رجال الدين، والذين كانوا يعتقدون كل الاعتقاد بسمو الرسالة القرآنية، وأفضلية التنظيم الاجتماعي المترتب عليها، وعاجزين عن إدراك الأسباب الكامنة وراء تخلف البلاد أمام تقدم أوربا، ومخلصين أوفياء للتقليد والمحافظة، ومتوجسين شرا من كل تغيير، وعاملين على أن يظل المجتمع مدبرا بقانون اعتبروه شريعة سماوية.

تقوى الوازع الديني بحلول محن مطلع القرن 17، بل زاد رسوخا في صفة الإسلام الشعبي. وهكذا تضاعف ثقل الخوارق في مجتمع غلبت على ساكنته هشاشة الحياة، وقصد رجاله ونساؤه شخصيات كاريزمية اعتقدوها قادرة بالبركة والكرامة على الاستجابة لطلبهم الأمان والحماية من كل أزمات الألفية. وهكذا تولدت عن هذه الروابط علاقات زبونية إضافية[73].

---

[69]- Bernard Rosenberger ; **Le Maroc au XVIe siècle: au seuil de la modernité** ;P 223 -234 .

[70]- Ibid ;P 228 .

[71]- Ibid ;P 223 .

[72]- Ibid ;P 227 .

[73]- Ibid ;P 225 -226 .

من العوامل العميقة التي عرقلت انخراط المغرب التام والدائم في الحداثة، وأفشلت سياسة السعديين في هذا الاتجاه، التأثير السلبي للعامل الديني. "ذلك أن الدولة أخفقت في التغلب على رجال الدين و لم توفق في تطويقهم ولا في تدجينهم، خلافا للإنجاز والانتصار الذي حققته الدول الأوربية في تعاملها مع الدين مؤسسة ورجالا"[74]. ويبقى الصراع "التكراري" بين التقليد والمحافظة وبين التحديث والحداثة، بمثيلة له عهد **المولى عبد العزيز**؛ أي قبيل الحماية مما يشي بطبيعته البنيوية. وبالتالي دخل المغرب في لحظة حركية التاريخ التي قادت أوربا إلى الحداثة الأولى واندمج فيها. وإذا كان قد غادرها بعيد وقت قصير كما تكشف عن ذلك المظاهر، فإنه مع ذلك وفي العمق وفي زمن تحول العالم هذا، قطع الصلة بسبل العودة إلى الوراء؛ أي إلى النموذج "الخلدوني".

ختاما:

وقف السعديون بكثير من الشدة في وجه الخطر المسيحي والتركي على السواء، ووعوا بشكل ناضج بمكانة المغرب الإستراتيجية في الدبلوماسية المتوسطية التي تؤهله بأن يحظى بتقدير واحترام دوليين، وذلك إلى غاية وفاة **المنصور**. ويكفي أن معركة "وادي المخازن" قد أعادت للمغرب اعتباره في الخارج و الداخل على السواء، وعلى العموم كانوا أذكياء في علاقاتهم الديبلوماسية، ففتحوا موانئهم للتجارة الأجنبية، واقتادوا من دول أوروبا آلافا من الأسرى والسلع والأسلحة الخ... وتردد مبعوثوهم بين المغرب و تركيا والشرق الاسلامي وهولندا وانجلترا والبرتغال وغيرها، فاتسع بذلك نطاق التبادل التجاري، وأصبح البحر المتوسط همزة وصل بينهما. خلال القرن 16 الذي عرف انتعاشا وازدهارا اقتصاديا على الرغم من الأزمات والكوارث التي تخللته، وكذا الانتقال التدريجي للتجارة الدولية نحو المحيط الاطلسي.

ارتبطت علاقة المغرب بالعالم الخارجي دائما بممارسته وظيفة الصفيحة المتحركة بين إفريقيا السوداء الطافحة بالذهب والمواد الثمينة، وبين أوربا المتوسطية المنتجة للمواد مصنعة"[75].

فما هو مصير ولوج المغرب إلى الحداثة، وهل كتب له النجاح أم الإخفاق؟ وإن كنا نتحدث عن مغرب على عتبة الحداثة، فالتجربة آلت إلى الفشل و لم تستمر، وأن البلاد لم تتخط خلالها أبواب الحداثة لتلج فعلا فضاءها الذي ظل لزمن طويل حكرا على الغرب. وفي الواقع كان نجاح التجربة محدودا، لأنه أخفى ضعفا بنيويا لهياكل الدولة. وأوقف انهيار الدولة، مطلع القرن 17، مسلسل التغيير المحدود هذا بل وأفسده، مما أفضى إلى فقدان البلاد استقلالها. ولن تتجدد المحاولة إلا مع الحماية التي أدخلت تغيرات راديكالية على الإدارة والاقتصاد وأنتجت متغيرات عميقة في المجتمع. وهنا يمكن أن نقرأ العوامل التي أتت على هذا البناء الدولتي Construction Etatique، الذي بناه السعديون من خلال تصنيفها عوامل ظرفية وبنيوية في آن واحد.

---

[74]- Ibid ;P 223 -234 .

[75]- Ibid ;P 163 -164 .

.